



شيخ الإسلام ابن تيمية حياته ومناقبه[2-3]

في ذكر شيء من ورعي :

كان - رضي الله عنه - في الغاية التي ينتهي إليها في الورع لأن الله تعالى أجراه مدة عمره كلها عليه فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة ولا ناظراً مباشراً لمال وقف ولم يكن يقبل جرابة ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته - رضي الله عنه - العلم اقتداء بسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين فإنه قال : (إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر) .
فأنظر بعين الإنصاف إلى ما وفق له هذا الإمام وأجرى عليه ما أقعد عنه غيره وخذل عن طلبه لكن لكل شيء سبب وعلامة عدم التوفيق سلب الأسباب ومن أعظم الأسباب لترك فضول الدنيا التخلّي عن غير الضروري منها ..

فلما وفق الله هذا الإمام لرفض غير الضروري منها انصبت عليه العواطف الإلهية فحصل بها كل فضيلة جليلة بخلاف غيره من علماء الدنيا مختارتها وطالبيها والساعنين لتحصيلها فإنهم لما اختاروا ملاذها وزينتها ورئاستها انسدت عليهم غالباً طرق الرشاد فوقعوا في شركها يخبطون خبط عشواء ويحطبونها كحاطب ليل لا يبالون ما يأكلون ولا ما يلبسون ولا ما يتأنلون ما يحصل لهم أغراضهم الدنيئة ومقاصدهم الخبيثة الخسيسة فهم متعاضدون على طلبهما يتحاسدون بسببها أجسامهم مليئة وقلوبهم من غيرها فارغة وظواهرهم مزخرفة معמורה وقلوبهم خربة مأسورة، ولم يكفهم ما هم عليه حتى أصبحوا قاليين رافقها معادين باغضها .

ولما رأوا هذا الإمام عالم الآخرة تاركاً لما هم عليه من تحصيل الحطام من الشبه الحرام رافضاً الفضل المباح فضلاً عن الحرام تحققاً أن أحوالهم وتوضّح خفي أفعالهم وأخذتهم الغيرة النفسانية على صفاتهم الشيطانية المباینة لصفاته الروحانية .

فحرصوا على الفتوك به أين ما وجدوه ونسوا أنهم ثعالب وهو أسد فحماه الله تعالى منهم بحراسته وصنع له غير مرة كما

صنع لخاسته وحفظه مدة حياته وحماه ونشر له عند وفاته علمًا في الأقطار بما والاه .

في ذكر بعض زهده :

أما زهده في الدنيا ومتاعها فإن الله تعالى جعل ذلك له شعاراً من صغره حديثي من أثق به عن شيخه الذي علمه القرآن المجيد قال: " قال لي أبوه وهو صبي يعني الشيخ أحب إليك أن توصيه وتعده بأنك إن لم تنتقطع عن القراءة والتلقين ادفع إليك كل شهر أربعين درهما . قال: ودفع إلي أربعين درهما، وقال : أعطه إياها فإنه صغير وربما يفرح بها فيزداد حرصه في الاشتغال بحفظ القرآن ودرسه وقل له لك في كل شهر مثلها. فامتنع من قبولها وقال: يا سيدى إني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجرا، ولم يأخذها . فرأيت إن هذا لا يقع من صبي إلا لما لله فيه من العناية " .

قلت : وصدق شيخه فإن عناية الله هي التي أوصلته إلى ما وصل من كل خير من صغره لا من كبر .

ولقد اتفق كل من رأه خصوصاً من أطوال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا حتى لقد صار ذلك مشهوراً بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ من كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية - رحمة الله عليه - .

وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته فيه مع تصحيح النية وإنما فمن رأينا من العلماء قنعوا من الدنيا بمثل ما قنع هو منها أو رضي بمثل حالته التي كان عليها لم يسمع انه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا مماليك جوار ولا بساتين ولا عقار ولا شد على دينار ولا درهم ولا رغب في دواب ولا نعم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم ولا زاحم في طلب الرئاسات ولا رئي ساعياً في تحصيل المباحثان مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبار كانوا طوع أمره خاضعين لقوله وفعله وادين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم مظہرين لإجلاله أو أن يؤهل كلا منهم في بذل ماله .

فain حاله هذه من أحوال بعض المنتسبين إلى العلم وليسوا من أهله ممن قد أغراه الشيطان بالواقعية فيه بقوله وفعله أترى ما نظروا ببعض صفاتهم وسماتهم وسماته وتحاسدهم في طلب الدنيا وفراغه عنها وتحاشدهم في الاستكثار منها وبمبالغته في الهرب منها وخدمتهم الأمراء واحتلafهم إلى أبوابهم وذل الأمراء بين يديه وعدم اكتراشه بكتراه وأتراهم وصدعه إياهم بالحق وقوه جأسه في محاورتهم على والله ولكن قتلهم الحالقه حالة الدين لا حالة الشعر وغطى على أحلامهم حب الدنيا السارقة سارقة العقل لا سارقه البدن حتى أصبحوا قاطعين من يأتيهم في طلبها واصلين من وأصلهم في جلها .

في كرمه مع فقره المدقع :

كان رضي الله عنه مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها وفقره فيها وتقائه منها مؤثرا بما عساه يجده منها قليلاً كان أو كثيراً جليلاً أو حقيقة لا يحترق القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه المحتاج إليه فيصل به الفقير وكان يتفضل بقوته القليل الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه وربما خبأهما في كمه ويمضي ونحن معه لسماع الحديث فيراها بعضاً وقد دفعه إلى الفقير مستخفياً يحرصن أن لا يراه أحد وكان إذا ورد عليه فقير وأثر المقام عنده يؤثره عند الأكل بأكثر قوته .

حديثي الشيخ الصالح العارف زين الدين علي الواسطي - ما معناه - انه أقام بحضور الشيخ مدة طويلة قال : " فكان قوتنا في غالبيها انه كان في بكرة النهار يأتيبني ومعه قرص قدره نصف رطل حبذا بالعرافي فيكسره بيده لقماً ونأكل منه أنا وهو جميعاً ثم يرفع يده قبلي ولا يرفع باقي القرص من بين يديه حتى اشبع بحيث أني لا أحتاج إلى الطعام إلى الليل وكنت أرى ذلك من بركة الشيخ ثم يبقى إلى بعد العشاء الآخرة حتى يفرغ من جميع عوائده التي يفيد الناس بها في كل يوم من أصناف القرب فيؤتي بعشائنا فأكل هو معى لقيمات ثم يؤثرني بالباقي وكانت أسأله أن يزيد على أكله فلا يفعل حتى إني كنت في

نفسي أتوجع له من قلة أكله".

وحكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار وتفقد المحتاجين والغرباء ورقيق الحال من الفقهاء القراء واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدتهم لهم بل ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ووجهه وجاهه.

في تواضعه :

وأما تواضعه بما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك كان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغنى الصالح والفقير وكان يدny الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلزيادة على مثله من الأغنياء حتى أنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبراً لقلبه وتقرباً بذلك إلى ربه .

وكان لا يسام من يستفتيه أو يسأله بل يقبل عليه ببشاشة وجهه ولين عريكة ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً كان أو صغيراً رجلاً أو امرأة حراً أو عبداً عالماً أو عامياً حاضراً أو بادياً ولا يجابه ولا يحرجه ولا ينفره بكلام يوحشه بل يجيئه ويفهمه ويعرفه الخطأ من الصواب بلهفة وابساط .

وكان يلزم التواضع في حضوره من الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلسه غيره. ولقد بالغ معه في حال إقامتي بحضرته في التواضع والإكرام حتى إنه لا يذكرني باسمي بل يلقبني بأحسن الألقاب ويظهر لي خصوصاً بين أصحابي من الإكرام والتجليل والإدناء منه بحيث لا يتركني أجلس إلا إلى جانبه قصيراً كان مجلسه أو طويلاً خاصاً أو عاماً ولا زمني في حال قراءتي " صحيح البخاري " وكان قصدي قراءته على رواية منفرداً لاستصغراني نفسي عن القراءة هناك بمحضر من الناس ولقصدي تعجّل فراغي منه انتهازاً لفرصة وخوفاً من فوات ذلك الشيخ الراوي لكونه تفرد بروايته سماعاً على أصحاب أبي الوقت السجزي .

فلما سمع الشيخ بذلك ألموني قراءته بمجمع كثير من الناس رجالاً ونساء وصبياناً وقال ما ينبغي إلا على صفة يكون نفعها متعدياً إلى المسلمين فتجدد لي بحيث حصل لي مرادي وفوقه من تحصيل قراءتي له في عشرين مجلساً متواالية لم يخللها سوى الجمعة ولا زمني فيها وحضر القراءة كلها يضبطها بنسخة كانت بيده هي أصل ابن ناصر الحافظ يعارض بها نسخة القراءة وكانت أصل الشيخ المسمى .

وأظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يدع أحداً منا يحملها عنه وكانت أعتذر إليه من ذلك خوفاً من سوء الأدب فيقول لو حملته على رأسي لكان ينبغي ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله ؟

وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجالس حتى إنني لأستحي من مجلسه هناك وأعجب من شدة تواضعه وبالمبالغة في إكرامي بما لا استحق ورفعي عليه في المجلس ولو لا قراءتي حديث رسول الله وعظم حرمتها لما كان ينبغي لي ذلك .

وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصحبه أو يلقاءه حتى أن كل من لقيه يحكى عنه من المبالغة في التواضع نحو مما حكته وأكثر من ذلك فسبحان من وفقه وأعطاه وأجراه على خلال الخير .

في هيئة ولباسه :

كان - رضي الله عنه - متوسطاً في لباسه وهيئته لا يلبس فاخر الثياب بحيث يرمي ويمد النظر إليه ولا أطماراً ولا غليظة تشهر حال لا بسها ويميز من عامة الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها من عالم وعاد بل كان لباسه وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم ولم يكن يلزم نوعاً واحداً من اللباس فلا يلبس غيره بل كان يلبس ما اتفق وحصل ويأكل ما حضر وكانت بذاته الإيمان عليه ظاهرة لا يرى متصنعاً في عمامة ولا لباس ولا مشية ولا قيام ولا جلوس ولا يتهيأ لأحد لقاءه .

وأخبرني غير واحد أنه ما رأه ولا سمع أنه طلب طعاماً قط ولا غداء ولا عشاء ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من

العلم والعمل بل كان يؤتي بالطعام وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه وإذا أكل شيئاً يسيراً قال وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعمتها ولا كان يخوض في شيء من حديثها ولا يسأل عن شيء من معيشتها بل جعل همته وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى .

وهكذا كان في لباسه لم يسمع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه بل كان أهله يأتون بلباسه وقت علمهم باحتياجاته إلى بدل ثيابه التي عليه .

وأخبر أخوه الذي كان ينظر في مصالحة الدنيوية أن هذا حاله في طعامه وشرابه ولباسه وما يحتاج إليه مما لا بد منه من أمور الدنيا وما رأيت أحداً كان أشد تعظيمًا للشيخ من أخيه هذا يعني القائم بأوذه وكان يجلس بحضرته كأن على رأسه الطير وكان يهابه كما يهاب سلطاناً وكنا نعجب منه في ذلك ونقول : من العرف والعادة أن أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب بل يكون انبساطهم معه فضلاً عن الأجنبي ونحن نراك مع الشيخ كلاميد مبالغ في احترامه واحترامه فيقول: "إني أرى منه أشياء لا يراها غيري أوجبت علي أن أكون معه كما ترون" وكان يسأل عن ذلك فلا يذكر منه شيئاً لما يعلم من عدم إيثار الشيخ لذلك .

في ذكر بعض كراماته وفراسته :

أخبرني غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار وأبدأ من ذلك ببعض ما شاهدته :

فمنها اثنين جرى بيدي وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل وطال كلامنا فيها وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها ثم أن الشيخ - رضي الله عنه - حضر فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه وجعل يذكر غالب ما أوردناه في كل مسألة ويدرك أقوال العلماء ثم يرجع منها ما يرجحه الدليل حتى أتى على آخر ما أردناه أن نسأل عنه وبين لنا ما قصدنا أن نستعلمه منه فبقيت أنا وصاحبي ومن حضرنا أولًا مبهوتين متعجبين مما كاشفنا به وأظهره الله عليه مما كان في خواطرنا .

وكنت في خلال الأيام التي صحبته فيها إذا بحث مسألة يحضر لي إيراد فما يستلزم خاطري به حتى يشرع في قوله ويدرك الجواب من عدة وجوه .

وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن الحريمي أنه سافر إلى دمشق قال : "فاتفق أنى لما قدمتها لم يكن معي شيء من النفقه البتة وأنا لا اعرف أحداً من أهلاها فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائط فإذا بشيخ قد أقبل نحوه مسرعاً فسلم وھش في وجهي ووضع في يدي صرة فيها دراهم صالحة وقال لي إنفاق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنت فيه فإن الله لا يضيعك ثم رد على أثره بأنه ما جاء إلا من أجلي فدعوت له وفرحت بذلك وقلت لبعض من رأيته من الناس من هذا الشيخ ؟ فقال : وكذلك لا تعرفه هذا ابن تيمية لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرك وكان جل قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه فتحقققت أن الله أظهره علي وعلى حالي بما احتجت بعدها إلى أحد مدة إقامتي بدمشق بل فتح الله علي من حيث لا احسب واستدللت فيما بعد عليه وقصدت زيارته والسلام عليه فكان يكرمني ويسألني عن حالي فاحمد الله تعالى عليه" .

وحدثني الشيخ العالِم المقرئ تقي الدين عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ احمد بن سعيد قال : "سافرت إلى مصر حين كان الشيخ مقيماً بها فاتفق أنى قدمتها ليلاً وأنا مثلث مريض فأنزلت في بعض الأمكنة فلم ألبث أن سمعت من ينادي باسمي وكنىتي فأجبته وأنا ضعيف فدخل إلى جماعة من أصحاب الشيخ من كنت قد اجتمعت ببعضهم في دمشق فقلت : كيف عرفتم بقدومي وأنا قدمت هذه الساعة فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض وأمرنا أن نسرع بنقالك وما رأينا أحداً جاء ولا أخبرنا بشيء، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ - رضي الله عنه -".

وحدثني أيضاً قال : "مرضت بدمشق إذ كنت فيها مرض شديدة منعني حتى من الجلوس فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي

وأنا مشتبه بالحمى والمرض فدعا لي وقال : جاءت العافية فما هو إلا أن فارقني وجاءت العافية وشفيت من وقتي " .
وحدثني أيضاً قال : " كنت قد استكتبت شعراً لبعض من انحرف عن الحق في الشيخ (أي ابن تيمية) قد تنصبه فيه وكان سبب قول ذلك الشعر أنه نسب إلى قائلة شعر وكلام يدل على الرفض فأخذ الرجل وأثبت ذلك عليه في وجهه عند حاكم من حكام الشرع المطهر فأمر به فشهر حاله بين الناس فتوهم أن الذي كان سبب ذلك الشيخ فحمله ذلك على أن قال فيه ذلك الشعر وبقي عندي وكانت ربما أورد بعضه في بعض الأحيان فووقدت في عدة أشياء من المكره والخوف متواترة ولو لا لطف الله تعالى بي فيها لأتت على نفسي فنظرت من أين دهبت فلم أر لذلك سبباً إلا إيرادي لبعض ذلك الشعر فعاشت الله أن لا أتفوه بشيء منه فزال عني أكثر ما كنت فيه من المكاره وبقي بعضه وكان ذلك الشعر عندي فأخذته وحرقته وغسلته حتى لم يبق له أثر واستغفرت الله تعالى من ذلك فأنهبه الله علي جميع ما كنت فيه من المكره والخوف وأبدلني الله به عكسه ولم أزل بعد ذلك في خير وعافية ورأيت ذلك حالاً من أحوال الشيخ ومن كراماته على الله تعالى " .

وحدثني أيضاً قال : " أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقرئ المطرز قال : قدمت على الشيخ ومعي حينئذ نفقة فسلمت عليه فرد علي ورحب بي وأدناني ولم يسألني هل معك نفقة أم لا فلما كان بعد أيام ونفذت نفقتي أردت أن اخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعني وأجلسني دونهم فلما خلا المجلس دفع إلي جملة دراهم وقال أنت الآن بغير نفقة فارتافق بهذه فعجبت من ذلك وعلمت أن الله كشفه على حالي أولاً لما كان معي نفقة وأخراً لما نفذت واحتاجت إلى نفقة " .

وحدثني من لا أتهمه : " أَنَّ الشَّيْخَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ نَزَلَ الْمَغْوُلَ بِالشَّامِ لِأَخْذِ دَمْشَقَ وَغَيْرِهَا رَجَفَ أَهْلَهَا وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا وَجَاءَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِّنْهُمْ وَسَأَلُوهُ الدُّعَاءَ لِلْمُسْلِمِينَ فَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ قَالَ أَبْشِرُوكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ بِالنَّصْرِ فِي الْيَوْمِ الْفَلَانِيِّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ حَتَّى تَرَوُنَ الرَّؤُوسَ مَعْبَأً بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ . قَالَ الْذِي حَدَّثَنِي : - فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ - أَوْ كَمَا حَلَّ مَا مَضِي إِلَّا ثَلَاثَ مِثْلَ قَوْلِهِ حَتَّى رَأَيْنَا رُؤُوسَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ عَلَى ظَاهِرِ دَمْشَقِ مَعْبَأً بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ " .

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن احمد بن عيسى النساج : " أَنَّ الشَّيْخَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَعُودُ الْمَرْضَى بِالبِّيمَارِسْتَانِ بِدَمْشَقِ فِي كُلِّ أَسْبَوْعٍ فَجَاءَ عَلَى عَادَتِهِ فَعَادُوهُمْ فَوَصَلَ إِلَى شَابٍ مِّنْهُمْ فَدَعَا لَهُ فَشَفَيَ سَرِيعًا وَجَاءَ إِلَى الشَّيْخِ يَقْصِدُ السَّلَامَ عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأَهُ هُنَّ لَهُ وَأَدْنَاهُ ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِ نَفْقَةً وَقَالَ قَدْ شَفَاكَ اللَّهُ فَعَاهَدَ اللَّهَ أَنْ تَعْجَلَ الرَّجُوعَ إِلَى بَلْدَكَ أَيْجُوزُ أَنْ تَتَرَكَ زَوْجَكَ وَبَنَاتَكَ أَرْبِعَا ضَيْعَةً وَتَقِيمَ هَاهِنَا؟ فَقَبَلَ يَدَهُ . وَقَالَ : يَا سَيِّدِي أَنَا تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ عَلَى يَدِكَ . وَقَالَ : الْفَتَى وَعَجَبَتْ مَا كَاسَفَنِي بِهِ وَكَنْتُ قَدْ تَرَكْتُهُمْ بِلَا نَفْقَةٍ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ عَرَفَ بِحَالِي أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِ دَمْشَقِ " .

وحدثني من أثق به : " أَنَّ الشَّيْخَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَخْبَرَ عَنْ بَعْضِ الْقَضَاءِ أَنَّهُ قَدْ مَضَى مَتَوْجِهًـ إِلَى مَصْرَ الْمُحْرُوسَةَ لِيَقْلِدَ الْقَضَاءَ وَأَنَّهُ سَمِعَ يَقُولُ حَالَ مَا أَصْلَى إِلَى الْبَلَدِ قَاضِيًّـ احْكَمَ بِقَتْلِ فَلَانَ رَجُلًا مَعِينًا مِنْ فَضْلَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ قَدْ أَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى عِلْمِهِ وَزَهْدِهِ وَوَرْعِهِ وَلَكِنْ حَصَلَ فِي قَلْبِ الْقَاضِيِّ مِنْهُ مِنَ الشَّحَنَاءِ وَالْعِدَاوَةِ مَا صُوبَ لَهُ الْحَكْمُ بِقَتْلِهِ فَعَظَمَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ سَمِعَهُ خَوْفًا مِّنْ وَقْوَعِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ لِمَثَلِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَحَذَرَ أَعْلَى الْقَاضِيِّ أَنْ يَوْقَعَهُ الْهُوَى وَالشَّيْطَانُ فِي ذَلِكَ فَيَلِقُ اللَّهَ مَتَلَبِّسًا بِدَمِ حَرَامٍ وَفَتَكَ بِمَسْلِمٍ مَعْصُومٍ الدَّمِ بَيْقَنِ وَكَرْهَوْا وَقَوْعَدُوا مِثْلَ ذَلِكَ لَمَّا فَيْهُ مِنْ عَظِيمِ الْمَفَاسِدِ فَأَبْلَغَ الشَّيْخَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - هَذَا الْخَبَرَ بِصَفَتِهِ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْكُنُهُ مَا قَصَدَ وَلَا يَصْلِي إِلَى مَصْرَ حَيَا فَيَقِنُ بَيْنَ الْقَاضِيِّ وَبَيْنَ مَصْرَ قَدْرِ يَسِيرٍ وَأَدْرِكَهُ الْمَوْتُ فَمَاتَ قَبْلَ وَصُولِهَا كَمَا أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الشَّيْخِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - " .

قلت : وكرامات الشيخ - رضي الله عنه - كثيرة جداً لا يليق بها هذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها ومن اظهر كراماته أنه ما سمع بأحد عاده أو غض منه إلا وابتلي بعده بلايا غالبها في دينه وهذا ظاهر مشهور لا يحتاج فيه إلى شرح صفتة .
في ذكر كرمه رضي الله عنه :

كان - رضي الله عنه - مجبولاً على الكرم لا يتطبعه ولا يتصنعه بل هو له سجية وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار

ولا درهم قط بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يوجد به كله وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة فإن كان حينئذ متذرعاً لا يدعه يذهب بلا شيء بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله .

حدثني الشيخ العالم الفاضل المقرئ أبو محمد عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد قال : " كنت يوماً جالساً بحضوره شيخ الإسلام ابن تيمية - رضي الله عنه - فجاء إنسان فسلم عليه فرأه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل " .

وقد روی مثل ذلك عن سيد الأنام وأكمل الخلق مروءة وعقالاً وعلمًا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم انه : (لبس يوماً شملةً سوداء لها حواش بيض وخرج إلى المسجد وجماعة من المسلمين حضور فرأه إنسان فقال : يا رسول الله أعطني هذه الشملة وكان لا يمنع سائله فنزعها رسول الله عن جسده المكرم ودفعها إلى ذلك الرجل وطقق الناس يلومون ذلك الرجل على ما فعل وكونه سأله النبي وكان محتاجاً إلى ما لبسه وقد علم انه لا يمنع شيئاً يسأله فقال : الرجل معذراً إليهم إني لم أطلبها لألبسها لكن لأجعلها لي كفناً عند موتي) قال : الراوي فامسكها عنده حتى كانت كفنه .

وهذا حديث مشهور قد رواه غير واحد من الحفاظ النقلة الثقات وهو من أوضح الدلائل على ما قلناه بل أبلغ في الجود والتواضع وكسر النفس وكرم الأخلاق .

وحدثني من أثق به أن الشيخ - رضي الله عنه - كان مارأ يوماً في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه فنزع ثوباً على جلده ودفعه إليه وقال بعه بما تيسر وأنفقه واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة .

وهذا أيضاً من المبالغة في عدم اكتتراثه في غير ما يقرب إلى الله تعالى وجوده بالميسور كائناً ما كان وهذا من أبلغ إخلاص العمل لله عز وجل فسبحان الموفق من شاء لما شاء .

وحدثني من أثق به : " أن الشيخ - رضي الله عنه - كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً من كتبه بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها " .

وأخبرني : " أنه جاءه يوماً إنسان يسأله كتاباً ينتفع به فأمره أن يأخذ كتاباً يختاره فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد أشتري بدراهم كثيرة فأخذه ومضى . فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك فقال : أيسن بي أن امنعه بعد ما سأله دعه فلينتفع به " .

وكان الشيخ - رضي الله عنه - ينكر إنكاراً شديداً على من يسأل شيئاً من كتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل ويقول : " ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه " .

ومن كرمه انه كان لا ينظر مع ذلك إلى جهة الملك والأمراء في عطاياهم للعلماء وهذا القدر من كرمه يغنى المقتدى به .

المصدر : رابطة أدباء الشام

المصادر: